الباب الرابع

العَـرَب

هى تلك الأمة القديمة التى كانت تسكن جزيرة العرب فى الطرف الغربى من آسيا . وينقسم تاريخهم ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم الى عصرين . أولهما العصر الجاهلى ، ويراد به تاريخ العرب من أول نشأتهم إلى ظهور الإسلام . وثانيهما العصر الإسلامى ، ويراد به تاريخهم بعـد الإسلام فى جزيرتهم ، وكذلك فى الأقاليم التى افتتحوها وأسسوا فيها ممالكهم العظيمة . وتاريخ العرب فى العصر الجاهلى مشوبٌ باللبس والغموض . وقد تهيبته أقلام الكاتبين ، وتحاشته جهابذة المؤرخين ، وما من أحد حاول التأليف فيه من أهل التحقيق إلا رجع عنه من منتصف الطريق أو أوائله . واذ كان هذا أمر تاريخ العرب العام قبل الإسلام فلا غرابة ان كان تاريخ التربية عندهم أشد التباساً وأعظم غموضاً . على أنا لا نعرف أحداً تصدى للتأليف فى موضوع التربية عند العرب الجاهليين ، أو كتب فى ذلك شيئاً يقضى حاجة فى النفس أو يشفى غلة فى الفؤاد . ولذلك فإنا لا نستطيع هنا إلا أن نصور للقارئ حال التربية فى ذلك العصر تصويراً إجمالياً يقفُه على قليل مما تجب معرفته فى ذلك الباب .

تقسيم العرب الجاهليين

ينقسم العرب الجاهليون قسمين بدو وحضر . أما البـدو فأقوام رُحَّل يقطنون بيوت الشعر ، ويعيشون من ماشيتهم ، فيتغذَّوْن بلحومها وألبانها ويتخذون من أصوافها وأوبارها أثاثاً ومتاعاً ، ويسكنون السهول ، ويتوغلون فى القفار ، وينتجعون الأراضى النضرة ، ويهرعون الى مجارى المياه . وأما الحضر فقد كانت لهم مدن عظيمة ، وكان لهم ملوك وأقيال فتحوا البلاد وأوغلوا فى الأرض واستولوا على كثير من أقطارها

شرقًا وغربًا ، وكانت لهم قوانين موضوعة وشرائع مسنونة وعلوم وفنون مدونة فى الكتب ومدارس ومعاهد للتربية والتعليم .

ولما كانت التربية عند أهل البوادى من العرب الجاهليين ، تختلف فى نظمها وطرائقها عنها عند أهل الحضر منهم ، رأينا أن نعالج كلا على حدة ، ولنبدأ بأولاهما .

التربية عند عرب البدو الجاهليين

أغراضها

كانت التربية عندهم ترمى الى أغراض متنوعة ، منها إعداد النشء لتحصيل ما هو ضرورى لحفظ الحياة ، فكان الغلام يتمرن على أعمال آبائه ليسلك طريقهم فى كسب العيش وتحصيل اللباس واتخاذ المسكن ، وليقتدر على مدافعة الأعداء ومنازلة الوحوش . كذلك كان من أغراض التربية عندهم بث العادات الفاضلة وغرس الخلال الطاهرة التى اشتهر بها العرب منذ القِدَم .

نظمها وموادها

كانت الأسرة أهم وسائل التربية ، وقد تشاركها فى ذلك العشيرة التى تجمع أفرادها أواصر النسب وروابط القرابة والتى تعد صورة مكبرة للأسرة ، فكان الطفل يأخذ عن أسرته أو عشيرته طرقها الخاصة فى كسب القوت وتحصيل اللباس واتخاذ المسكن ، ويتعرف منها أساليب الدفاع وطرق الإغارة على الأعداء وفنون الأعمال والصناعات التى كانت لها ، وهذه الصناعات وإن لم تبلغ فى بابها شأواً بعيداً كثيرة متنوعة : منها الصيد والقنص وإعداد آلات الحرب وعمل الآنية ودبغ الجلود وغزل الصوف وحياكة الملابس وتربية الماشية ، وغيرها كثير . كذلك كانت الأسرة والعشيرة أهم الوسائل فى تحصيل الأخلاق الفاضلة ، فقد كان الأحداث يأخذون عن آبائهم وأبطال عشيرتهم أخلاق الشجاعة والإقدام ، ويتعلمون منهم الكرم والوفاء والمروءة والنجدة والغيرة وغيرها من الشيم الفاضلة التى اشتهر بها العرب وعُرِفُوا بها بين الأمم .

أما العلوم والمعارف فقد كان لهم فى كثير منها قدم راسخة ، فقد نبغوا فى الشعر والخطابة وعلم الأنساب وعلم وصف الأرض . ووصلوا إلى غايات بعيدة فى علوم النجوم والطب والأنواء ومهابِّ الرياح والكِهانة والعِيافة والقِيافة والزجر والفِراسة .

حَذَق العرب هذه العلوم والمعارف من غير أن يتلقوها فى المدارس أو يقرءوها فى الصحف لأنهم كانوا فى جملتهم أميين لا يقرءون ولا يكتبون ؛ وإنما استفادوها بالتجارب والاستنباط والاقتباس من الأمم المجاورة ، وقد تجمعت فى حوافظهم وتنوقلت فى أعقابهم بالرواية والسماع .

طرقها وأساليبها

لم يكن لعرب البدو الجاهليين طرق موضوعة ولا أساليب محدودة فى تربية النشء وتثقيفه . وإنما كانَ الأحداث يأخذون ما يصل اليهم من الآداب والأخلاق والمعارف بالتقليد والمحاكاة ، أو بما يسمعونهُ من النصائح والعظات التى يلقيها الآباء والأمهات وذوو العقول الراجحة من الأقارب ورؤساء العشائر ، أو بما يتدبرونه فى الشعر الحسن من المعانى السامية والفكر المبتكرة والأخيلة الدقيقة .

كان الحدث يخالط أبويه وذوى قرابته وأهلَ عشيرته جميعًا ، ويلحظ ما كان لهم من الآداب والعادات فى حلهم وترحالهم ، وطعامهم وشرابهم ، وجِدهم وهزلهم ، وحربهم وسلمهم ، وفى كل وجه من وجوه أعمالهم ، فينبعث إلى محاكاتهم والاقتداء بهم ، وما هى إلاَّ سنوات قليلة حتى تنتقل إليه طباعهم وتصدر عنهُ أعمالهم بطريق العادة .

أما العظات والنصائح التى كان الآباء والأمهات وذوو القرابة يُسْدُونها إلى الأطفال ، فما كان أكثرها وأبلغ تأثيرها ، وما كان أنفق سوقها عند العرب الجاهليين . كانت الأم تجلس إلى ولدها فتُلْقى عليه من المواعظ والنصائح ما يبصره بطريق الحياة ويحبب إليه الفضيلة . وكان الأب يجمع بنيه وينثر عليهم من عظاته ويقص عليهم من تجاربه ما يمهد لهم طرق الهداية والرشاد . وكذلك كان للأخوة الراشدين والأعمام والأخوال

النابهين أعمال كثيرة من هذا النوع فى تأديب الأحداث والأطفال . من ذلك أن أعرابية رأت ابنها وقد أزمع السفر ، فأرادت ألاّ يفارقها حتى تزوده بشىء من النصائح الغالية والحكم العالية ، قالت :

« أى بنى ، اجلس أمنحك وصيتى و بالله توفيقك ، فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك . أى بنى ، إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين . إياك والتعرضَ للعيوب فتتخذ غرضًا ، وخليق ألاَّ يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضًا إلاّ كلمته حتى يَهِىَ ما اشتد من قوته . و إياك والجودَ بدينك والبخلَ بمالك . و إذا هززت فاهْزُزْ كريمًا يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها . ومثل لنفسك مثالَ ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه »

وأوصى أعرابى ابنه فقال : « ابذل المودة الصادقة تستفد إخوانًا وتتخذ أعوانًا فإن العداوة موجودة عتيدة ، والصداقة مُسْتَعْزَزَةٌ بعيدة . جنب كرامتك اللئام فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، و إن نزلت شديدة لم يصبروا . »

معاهدها

لما كانت أعمال الحياة وفنونُها فى ذلك العصر وعند هذا الجيل من الناس سهلة ساذجة ، كان من السهل على النشء أن يحصّلها بالمحاكاة والاشتراك فى الأعمال التى يقوم بها آباؤه ومن هم أكبر منـهُ سنًا من أهله وذوى قرابته . ولذلك لم تكن هناك حاجة إلى مدارس أو معاهد للتعليم على نحو ما هو معروف عند الأمم الراقية المتقدمة فى الحضارة . على أنه لا يصح إطلاق القول فى ذلك إطلاقًا ، فقد كان للعرب الجاهليين أسواق ومجالس آداب تشبه فى كثير من الوجوه الأندية اللغوية والمجامع العلمية التى للأمم المتمدينة فى العصور الحاضرة . أما مجالس الآداب فكانوا يعقدونها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والبحث فى بعض الشئون العامة ، وكانوا يسمونها الأندية ، ومنها نادى قريش . وأما الأسواق فقد كانت أمكنةً تجتمع فيها الناس فى أوقات معينة للبيع والشراء ، وكان

العرب يحضرونها بما عندهم من المآثر والمفاخر، فينشدون الشعر ويلقون الخطب ويتحاكمون إلى قضاة نصبوا أنفسهم لنقد الشعر وبيان غثه من سمينه . فكانت لذلك من أكبر الوسائل فى شحذ الذهن وترقية الفكر وتهذيب اللغة ؛ فلا غرو أن كانت من أكبر معاهد التربية العالية عند العرب . ومن أشهر هذه الأسواق عكاظ قُربَ الطائف ، ومَجنَّةُ بالقرب من مكة ، وذو المجاز على فرسخ من عرفة . وما أشبه هذه الأسواق بمعاهد التربية البدنية اليونانية التى تقدم ذكرها ، وهى أبنية كان اليونان يجتمعون فيها للألعاب ، ويذهب إليها فلاسفتهم وعلماؤهم وأدباؤهم ، فيغتنمون فرصة اجتماعهم هناك فيتباحثون ويتناظرون ويتنافرون ، كما كان العرب يفعلون فى عكاظ وغيرها من الأسواق .

المرأة العربية البدوية فى الجاهلية

كان للمرأة العربية فى الجاهلية من علو المنزلة وسمو المكانة وجميل الأخلاق ونبيل الصفات ما للرجل ، وفرةُ عقل ، وحَصَافةُ رأى ، وصفاء ذهن ، وطِيبُ أخلاق وآداب . كانت موضع الكرامة والإجلال يأتمر الرجل بأمرها وينزل فى الحادثات على حكمها . وكانت تستشار فى أمر زواجها ، وتترك لها الحرية فى اختيار بعلها ، وقلَّ أن غُلِبَت امرأة من نساء العرب على أمرها فى شأن تزويجها ، ولهم فى ذلك أقوال مأثورة وأحاديث مشهورة يُرْجَعُ إليها فى كتب الآداب والأخبار .

أما التربية فكان حظ المرأة منها وافراً . كانت تتعلم الشعر والخطابة وكثيراً من الأعمال والفنون التى يجيدها الرجال ، وكانت فوق ذلك تتعلم تدبير المنازل ، وإعداد المطاعم ، ورعى الماشيـة ، وهنء الإبل ، وغزل الصوف ، والضرب على المعازف من دفوف وطبول ومزاهر . وكانت تتعلم أسو الجروح فى أوقات الحروب على نحو مايفعل نساء الإفرنج فى هذه الأيام .

كانت الأم العربية تُعِدُّ بنتها لتكون زوجة صالحة ترعى حقوق زوجها ، ولتكون فى المستقبل أما تحسن تربية الأطفال وتهذيبهم ، فكثيراً ما كانت الأم تختلى ببنتها ليلة زفافها فتبصرها بحقوق الأزواج ، وتسدى إليها من النصائح ما يساعدها على أن تكون خير

زوجة وخير أم . وفى كتب الأخبار من هذه الوصايا شىء كثير مستفيض .

نعم قد اشتمل تاريخ المرأة فى الجاهلية على وصمتين من أكبر الوصمات ، ذلك ما كان فاشيًا بين العرب من سبى النساء ووأد البنات. أما السبى فقد كان من عادتهم فيه أنهم إذا خرجوا لقتال عدو أعقبوا صفوفهم بنسائهم وذوات أرحامهم حملاً لأنفسهم على الصبر والثبات ، وقد يغلبهم العدو فيخترق صفوفهم حتى يصل إلى نسائهم فيأخذهن سبايا و يسوقهن إلى بيته ، فيحتكم فيهن ليكون ذلك إذلالا للمغلوب و إلصاقًا للعار به .

وأما الوأد فقد كان من أمرهم فيه أن العربى إذا وُلِدَت له وليدة حَزِن واغتم وأصرَّ لها الشر والسوء ، ثم تركها حتى إذا كانت سداسية حفر لها بئراً فى الصحراء ، ثم قال لأمها طيِّبيها وزيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، ثم أخذها وسار بها حتى إذا بلغ البئر التى حفرها ، قال لها انظرى فيها : فإذا نظرَتْ ، دفعها من خلفها وهال عليها التراب ، ثم قفل راجعًا يجلِّلهُ الحزن والاكتئاب . كانوا يفعلون هذا المنكر و يأتون هذا الإثم لمزيد غيرتهم وخوفًا من العار الذى قد يلحق بهم من أجلهن . ومنهم من كان يأتيه خشية الإنفاق وخوف الفقر . ومما يجب التنبيه عليه هنا أن الوأد لم يكن من العادات الفاشية بين العرب ، حتى يعُمَّ عارُه جميعَ هذا الجيل المعروف بالشهامة والمروءة والعزة وكرم الأخلاق ، و إنما اختُصَّت به قبائل قليلة قست قلوبُها فتردَّت فى غوايتها وصدَّت عن سواء السبيل .

عرب الحَضَر الجاهليون

هم أمم كثيرة مختلفة منها البائدة ومنها الباقية . ولكثير منها سلطان واسع ومَدَنية راقية : ملوك وآطامٌ وقصور وقِلاع و بُروج ، ومدارس للتعليم والتهذيب .

وليس من الحزم فى مثل هذا الكتاب أن نفصِّل أحوال التربية عند كل أمة من هذه الأمم ، فإن ذلك لا ينتج إلا ذكر نُظُم متشابهة ، وشئون متماثلة ؛ و إنما الأجدر الاقتصار على ذكر حال التربية فى أمة واحدة لتكون مثالاً لها عند الأمم الباقية . ولنختر لهذا التمثيل أعظم الأمم شأنًا ، وأرسخها فى المدنية قَدَمًا : تلك هى دولة العمالقة فى العراق .

العمالقة فى العراق

كان للعمالقة فى خارج بلاد العرب دولتان كبيرتان ، إحداهما فى العراق ، والأخرى فى مصر . والأولى منهما توافق ما يسميه المؤرخون الآن (بالدولة البابلية الأولى) أو (الدولة الحمورابية) ، نسبة إلى (حَمُورَابى) أعظم ملوكها وصاحب الشرائع القديمة المعروفة باسمه ، فإن المحققين من المؤرخين يذهبون إلى أن هذه الدولة عربية صميمة ، و إحدى قبائل العرب البائدة أو العرب العرباء .

حكم العمالقة فى العراق نحو ثلاثة قرون ونصف (٢٦٤٠ – ٢٢٨١ ق . م) . وكان عدد ملوكهم أحد عشر سادسهم « حَمُورابى » ، وهو الذى بلغت الدولة فى عهده غاية مجدها ونهاية سلطانها . فتح بابل وغزا الآشوريين حتى أدخل بلادهم فى طاعته ، وسن من الشرائع والقوانين ما دل على أن هذه الدولة بلغت من الرقى والتقدم غاية ما وصلت إليها أمة من الأمم فى هاتيك العصور .

نظامهم الاجتماعى

كان العمالقة فى العراق ثلاث طبقات : الأحرار والعبيد وطبقة بين هاتين هى طبقة الموالى ، فالمولى عندهم أرقى من العبد وأحط من الحر ، فله أن يقتنى العبيد و يتزوج من الحرائر ، ولكنه أمام القضاء أحط منزلة وأقل مؤاخذة من الحر ، فإذا جنى أحد على آخر فكسر عظمه مثلاً ، عوقب الجانى بكسر عظمه إن كان المجنى عليه حرًّا ، فإن كان مولى كانت العقوبة منًّا من الفضة يدفعه غرامة ، وإن كان عبداً فنصف منّ ليس غير .

نساؤهم

كان للنساء عند العمالقة فى العراق منزلة عالية ومكانة سامية . كن متمتعاتٍ بحريتهن واستقلالهن كنساء الأمم المتمدينة فى هذا العصر ، وكنّ مساويات للرجال فى الحقوق

يشاركنهم فى أعمال التجارة والصناعة والزراعة ، ويزاولن المهن القلمية وينخرطن فى خدمة الدواوين الحكومية .

وكان الزواج وثيق العرا عندهم لا يعتد به إلاّ بعقد كتابى . وكان للمرأة عند زوجها نصيب كبير من الإجلال . نعم كان للرجل أن يقتنى الجوارى ويتسرّى ، ولكن لا يقبل منه ذلك إلاّ إذا كانت زوجه عقيماً ، فهو يفعله ابتغاء النسل ليس غير .

علومهم ومعارفهم

كانت معارف العالقة فى العراق غزيرة واسعة ، وعلومهم كثيرة متنوعة ، إلاّ أنها كانت عملية بحتة عُمْدتها التجارب ، ويشوبها كثير من الأباطيل والخرافات .

فمن علومهم الهندسة العملية ، دعتهم اليها البيئة التى كانوا فيها ، وذلك أن مملكتهم كانت تُغَطَّى كل ربيع بما يأتى به دِجلة والفرات من الغرين الذى يُخْصب الأرض ويزيد فى قوة إنباتهـا ، فدفعهم ذلك إلى الأعمال الزراعية ، وجرهم إلى الاشتغال بالهندسة فى إرواء الأرض وإعدادها للزراعة ، فعرفوا كيف يخزنون المياه ويحسنون توزيعها ، وكيف يشقون الترع ويقيمون الجسور إلى غير ذلك مما تستدعيه أعمال الفلاحة فى البلاد التى تخترقها الأنهار العظيمة .

ومنها الحساب والهندسة وعلم الآلات ، فقد كانت لهم طرق خاصة راقية فى العد . ولهم مقاييس للأطوال والسطوح والمكاييل والموازين متخذين قبضة اليد وحدة لكل ذلك . كذلك كان لهم باع طويل فى علم النجوم ، فقد رصدوا الكواكب وعينوا أماكنها ، وعرفوا السيارات وبعض الثوابت ، ورسموا الأبراج ومنازل الشمس والقمر . وحسبوا الكسوف والخسوف إلى غير ذلك مما يدل على براعتهم فى هذا العلم .

أما الطب فلم يصل عندهم إلى درجة راقية ، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الأمراض والعلل جميعًا إنما تنشأ من مس الشياطين وملابسة الجن ، ولذلك كان عمادهم فى التداوى والاستشفاء على أنواع من الشعوذة والعِرافة ، وصنوفٍ مختلفة من الرُّقَى

والعزائم . نعم قد وصلوا بالمصادفة ومن غير تعمد إلى بعض أدوية ومعالجات حقيقية نافعة كانوا يستعملونها فى كثير من الأحيان .

وأما الآداب فكان لها عندهم سوق نافقة وتجارة رائجة ، وكانت عناية الناس بها شديدة . يدلك على ذلك ما عثر عليه المنقبون والباحثون حديثًا فى آثار المدن وفى بطون الأرض من الصحف الصلصالية التى تعد بالآلاف ، والرسائل المنقوشة على الأحجار والقراميد وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والنصوص التاريخية . وكذلك الأشعار والأناشيد والأدعية الدينية والأقاصيص والحكايات التى تبين آراءهم وعقائدهم فى خلق العالم و بدء تكوينه . وقد عثر المنقبون أيضًا فى أنقاض هذه المملكة القديمة على معجمات وكتب للمطالعة وأخرى فى قواعد اللغة وعلى قراميد من الصلصال عليها دروس فى الحساب والهجاء ، وغير ذلك مما يدل على ما كان لهذه الأمة القديمة من العناية الفائقة بالتربية والتعليم

التربيـة

أغراضها

كانت التربية عنـد عمالقة العراق عملية محضة ، ترمى إلى تخريج النشء فى المهن والصناعات المختلفة كالهندسة والطب والبناء والنقش والنجارة وغيرها من المهن التى بها يكسب الإنسان رزقه ، و يعيش فى دنياه عيشة راضية سعيدة .

أما التربية الحرة التى ترمى إلى تحبيب العلم إلى النشء وترغيبهم فيه لذاته لا لفائدته العملية ، فقد كانوا منصرفين عنها كل الانصراف .

نظمها ومعاهدها وموادها

التربية هنا قسمان ابتدائية وعالية ، أما الأولى فلا يكاد المؤرخون يعرفون عن مدارسها شيئًا مذكوراً ، ولكن مما لا ريب فيه أنها كانت فاشية منتشرة فى أرجاء البلاد. وقد كشف الباحثون فى آثار (زيبارا) أنقاض مدرسة لتعليم الأطفال ، كان فيهـا

قراميد عليها دروس للأحداث فى الحساب والهجاء ، ووجدوا فيها معجمات وكتبًا للمطالعة وقواعد اللغة . وأما التربية العالية فقد كان لها مدارس ومعاهد متصلة بالمعابد . وكانت دور الكتب فوق ذلك مورداً عذبًا يرتشف منه الطامحون من طلاب العلم وروّاده .

أما المواد الدراسية فهناك ما يدل على أنها كانت تشمل طائفة كبيرة من العلوم والفنون كالهندسة العملية ، والرياضة وعلم الفلك وعلم اللاهوت والعلوم الطبعية المختلفة والطب وفن العمارة والنقش والتصوير والأدب والتاريخ .

طرقها وأساليبها

يظهر أن العمالقة فى العراق كانوا يعتمدون فى التدريس على الحفظ والتقليد . ومن طرائقهم فى تعليم الخط أن المعلم يكتب بالمملول نماذج على ألواح من الطين الطرى ثم يجففها و يضعها للتلاميذ فيحاكونها فى ألواحهم . وقد كانت الكتابة عندهم تصويرية ذات علامات مختلفة ، كل علامة تمثل معنى من المعانى أو فكرة من الفكر . وقد عثر الباحثون على كثير من هذه الألواح أو القراميد فى آثار (بابل) . ولم تكن التربية العالية لتختلف عندهم فى أساليبها وطرقها عن التربية الابتدائية ، فقد كانت طريقتها لديهم الحفظ والتقليد أيضًا . وقد كان التعليم بنوعيه إفراديًا ، فيختص المعلم كل تلميذ من تلاميذه بجزء من وقته ، وحصة من عنايته . وقد كان المعلمون فى المدارس الابتدائية كثيرى العدد . إلاّ أن المؤرخين لا يعلمون شيئًا عن حقيقتهم ، ولا يعرفون من أى طبقة هم ، أما القائمون بالتعليم العالى فقد كانوا جميعًا من طبقة القساوسة والرهبان .

العرب فى العصر الإسلامى

كان العرب فى جاهليتهم قبائل متدابرة متقاطعة ، ديدنهم شن الغارات ، وإدراك الثارات . فلما جاء الإسلام جمع كلمتهم ، ولَمَّ شَعَثَهم ، وجعلهم يداً واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم . وقد هداهم النبى صلى الله عليه وسلم بالقرآن أحسن هداية ، وقادهم

هو وأصحابه من بعده إلى فتح المدائن وغزو الممالك ، وكانوا فى كل أعمالهم موفقين مظفَّرين ، فصار لهم بذلك ملك كبير وسلطان عظيم .

علومهم ومعارفهم

كانت همم العرب فى بَداءة الإسلام منصرفة إلى نشر دينهم و إنشاء دولتهم ، ولم تكن لهم عناية تذكر بشىء من العلوم عدا القران ، فانه كان قِوامَ الإسلام وأساسَه ، وفى تأييده تأييد الإسلام والجامعة الإسلامية . وقد انقضت أيام النبى صلى الله عليه وسلم وأيام الخلفاء الراشدين من بعده ، والهمم على حالها منصرفة عن العلوم وتدوينها ، اللهم إلا ما كان من أمر كتابة المصحف .

جاء عصر بنى أمية وقد انتشر الإسلام ، واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة فى الأقطار ، واختلط العرب بالأعاجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان ، وفشا اللحن ، وحدثت الفتن ، واختلفت الآراء ، وكثرت الفتاوى فى مسائل الدين ، فاضطروا الى تدوين شىء من العلوم يحفظون به لسانهم ودينَهم ، ولم يتعد ذلك قواعد النحو و بعض الأحاديث وأقوالَ طائفة من فقهاء الصحابة فى التفسير .

جرت ريح العلم هكذا رُخاء فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية ، حتى إذا آلت الخلافة إلى بنى العباس واستقر الملك فيهم ، نهض خلفاؤهم إلى تشجيع العلم وحث الناس على تحصيله ، وأخذوا يقربون العلماء و يبالغون فى إكرامهم واحترامهم ، فاشتد الإقبال على الدرس والتحصيل ، وراجت بضاعة التدوين والتصنيف . ولم يقتصر الخلفاء على معاضدة العلوم الإسلامية بل شَملوا بعنايتهم علوم الأمم المتحضرة الحديثة والقديمة ؛ ولذلك أخذ المترجمون ينقلون إلى العربية علوم الآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهند والفرس واليونان والروم ، فذخرت بذلك بحور العلم ، وكثرت فنونه كثرة يدهش لها الإنسان . ويجمل بنا فى هذا المقام أن نذكر للقارئين طائفة من العلوم التى اشتغل بها العرب فى الاسلام ووصلوا فيها إلى غاية بعيدة .

العلوم اللسانية

لما كثر اختلاط العرب بالأمم المختلفة من الأعاجم فسدت ملكة اللغة فيهم ، وفشا اللحن فى ألسنتهم ، فخافوا على القرآن أن يستغلق فهمه و يصعب استنباط الدين منه ، فوضعوا العلوم اللسانية التى تساعد على حفظ اللغة و بقاء القرآن مفهوماً . ومن هذه العلوم النحو والصرف ومتن اللغة والبلاغة بأقسامها . وجمعوا أخبار جاهليتهم وما أثر عنها من الشعر والخطابة ، وألفوا فى ذلك الكتب والرسائل ، فحفظوا بذلك لغتهم وأمنوا عليها الضياع والفساد

العلوم الشرعية

لم يكن اهتمام العرب بالعلوم اللسانية إلا وسيلة لتَفَهُّم القرآن واستنباط الشريعة منه . ومن هنا نرى أن عناية المسلمين بالعلوم الشرعية كانت تفوق عنايتهم بعلوم اللسان . وتشمل العلومُ الشرعيـــة علومَ التفسير والقراءات والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض والجدل والكلام ؛ وقد بذل المسلمون فى هذه العلوم منتهى الجهد ، ووصلوا فيها إلى غاية ليس وراءها مطمع لمستزيد ، فصنفوا فيها ألوف الألوف من الكتب ، ولم يذروا صغيرة من مسائل الدين والاعتقاد إلا بحثوا فيها بحثًا مستفيضًا حتى أصبحت الشريعة بفضل جهدهم بَيِّنَةً ظاهرة لا لبس فيها ولا خفاء .

التاريخ

نبغ العرب فى التاريخ وافْتَنُّوا فيه أيما افتنان . فكتبوا فى الأنساب ، وفى طبقات الرجال ، وفى سير ملوك الفرس ، وفى تاريخ الأمم والممالك ، وقد خلفوا فى كل فن من هذه الفنون كتبًا كثيرة قيمة ، وأكثرها حسن العبارة بليغ الأسلوب . وممن اشتهر من مؤرخى العرب أبو عبيدة ، والأصمعى ، وابن قتيبة ، والطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، وغيرهم كثير .

علم وصف الأرض

اشتغل العرب بعلم وصف الأرض قبل أن يُنْقَل هذا العلم إلى العربية ، وقبل أن يطلعوا على كتاب بطليموس . وقد ساعدهم على الاشتغال به أمور كثيرة . منها الحج فان المسلمين على اختلاف بلادهم وأقاليمهم يحجون جميعًا إلى مكة ؛ والقدومُ إلى مكة من الأقطار النائية يستلزم معرفة الأماكن والبلاد . ومنها الرحلة فى طلب العلم ، فقد كان المسلمون يرحلون فى طلب العلم إلى جميع الأقطار الاسلامية ، والرحلة تستلزم معرفة الطرق والأماكن المختلفة . ومنها كثرة الفتوح وانتشار المسلمين فى البلاد التى فتحها الإسلام .

ولما تُرْجِمَ علم وصف الأرض ونقلت كتبه إلى اللغة العربية واطلع عليها العرب ، استفادوا منها كثيراً وزادت معرفتهم بأوصاف الأماكن وطبائع الأقاليم ، وأخذوا يؤلفون الكتب على مثال الكتب الأجنبية ، ولم يقفوا عند هذا الحد حدِّ النقل والتقليد ، بل ركبوا البحار وجابوا الأقطار ودونوا ما شاهدوه وحققوا ما دونوه وأصلحوا كثيراً من أغاليط بطليموس. وقد صنعوا كثيراً من المصورات والكرات الأرضية المتقنة المضبوطة .

ومما يدل على فضلهم وسبقهم فى هذا المضمار أن الأوربيين لما تمكن من قلوبهم حب الكشف وهاجهم الميلُ إلى الاطلاع فذهبوا الى مجاهل أفريقية وإلى جزائر الأوقيانوسية هالهم ما رأوا هناك من الآثار التى تدل على أن العرب سبقوهم إلى هذه الأقاليم منذ مئات من السنين . وقد اشتهر من العرب فى هذا العلم طائفة كبيرة منهم أبو زيد البلخي ، والإصطخرى ، والمسعودى ، وأبو الفداء ، والشريف الإدريسى . وكُتبُ هؤلاء مطبوعة موجودة .

العلوم الدخيلة

لما اتسع سلطان المسلمين ودانت لهم الممالك العظيمة وفرغوا من وضع علوم الدين واللغة ، تاقت نفوسهم إلى الاشتغال بعلوم الأمم المتمدينة قبلهم من منطق وطبعيات

ورياضيات وإلهيات ، وما تفرع عنها من طب وصيدلة وفلاحة وكيمياء ، ومن حساب وجبر وهندسة وفلك وسياسة وأخلاق وغيرها .

أقبل العرب على نقل هذه العلوم من اللغات الأجنبية ، وعكفوا على تحصيلها ودراستها فأتقنوها أيما إتقان . وقد بدءوا اشتغالهم بالترجمة والنقل ، ثم انتقلوا من هذا الدور إلى دور التحقيق والتأليف والنقد .

(١) دور الترجمة والنقل : كان العصر العباسى أزهى العصور الإسلامية التى اشتغل فيها المسلمون بنقل العلوم الأجنبية الدخيلة . وأول الخلفاء العباسيين اهتماماً بها أبو جعفر المنصور ، فإنه على فرط عنايته بالعلوم الإسلامية كان كثير الشغف بالطب والنجوم والهندسة ، وقد ترجمت له فيها كتب كثيرة .

ولما جاء المأمون وكان واسع العلم غزير الفضل ميالاً إلى حرية التفكير والقول محباً للأخذ بالأقيسة العقلية فى الأمور الدينية ، تسارع الناس فى زمنه إلى الأخذ بمذهب الاعتزال الذى أساسه تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية . وقد مال المأمون نفسه إلى هذا المذهب وقرب إليه أشياخه وجعل يعمل على تأييده بالحجة والبرهان . ولما رأى دراسة الفلسفة والمنطق تساعد المعتزلة فى إقامة الحجة وتعينهم على ترتيب الأدلة وإقناع الخصم ، أمر بنقل كتبهما من اليونانية إلى العربية ، ونظر فيها هو وأصحابه فرسخت عقيدتهم ، وازدادوا تمسكاً بالاعتزال . وقد رأى غير المعتزلة من السُّنيين أن ينظروا أيضاً فى الفلسفة ليستطيعوا بذلك أن يناظروا خصومهم ويجادلوهم بمثل أدلتهم ، ففعلوا وشاعت الفلسفة بين طبقات المسلمين .

بدأ المأمون بنقل الكتب المنطقية والفلسفية ، ولم يلبث بعد ذلك أن جعل الترجمة عامة لجميع الكتب اليونانية ، فدعا المترجمين من جميع الأقطار وأجزل لهم من العطاء ، فترجموا له كتب الطب والنجوم والطبيعيات ، ولم يتركوا علماً من العلوم المعروفة إلا ترجموا فيه أكثر من كتاب .

استمرت هذه النهضة بعد المأمون بعناية جملة من خلفائه ، حتى لم يبق علم مما صَنّف

فيه اليونان والسريان والفرس والهنود إلا عرفه المسلمون بما ترجم لهم من كتبه . قال صاحب كتاب التمدين الإسلامى فى الجزء الثالث ما نصه

« وجملة القول أن المسلمين نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفًا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند الأمم المتمدينة فى ذلك العهد ، ولم يغادروا لسانًا من ألسنة الأمم المعروفة إذ ذاك من غير أن ينقلوا منه شيئًا وان كان اكثر نقلهم من اليونانية والفارسية والهندية ؛ فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ، فكان اعتمادهم فى الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان . وفى الطب والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود . وفى الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان . وفى الكيمياء والتشريح على المصريين فكأنهم ورثوا أهم علوم الآشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان . وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدين الإسلامى الدخيلة »

(٢) دور التحقيق والتأليف : لم تكد العلوم الدخيلة تنتقل إلى العربية حتى أخذ المسلمون فى دراستها والاشتغال بها ، وقد كان اشتغالهم بها فى أول الأمر لا يتعدى النظر والتلخيص والشرح حتى إذا كسبوا ملكاتها أخذوا يتدبرون كل علم يدرسونه منها ويحققون مسائله بكل ما أوتوه من قوة عقل وصحة فهم ، وقد تمكنوا بذلك من إصلاح كثير من الأغاليط التى أحدثتها الترجمة ، وكذلك الأغاليط التى وقعت لليونان أنفسهم ، واستطاعوا أن يضيفوا إلى هذه العلوم الدخيلة آراء جديدة وفكرًا صالحة من عند أنفسهم . وبذلك دخلوا فى طور التأليف والتكميل والاختراع . وقد جعلوا علمهم بهذه العلوم عمليًّا مبنيًّا على المشاهدة والتجربة بقدر ما كان مستطاعًا فى تلك الأيام . وقد ساعدهم ذلك على ابتكار مخترعات عجيبة وصنع آلات دقيقة إلى غير ذلك مما هو مفصل فى غير هذا المكان .

وقد نبغ فى كل علم من العلوم الدخيلة طائفة كبيرة من علماء المسلمين . فمن الذين نبغوا فى الفلسفة يعقوب الكندى ، وأبو نصر الفارابى ، وابن سينا ، وحجة الاسلام الغزالى ،

وابن رشد . وممن نبغوا فى الطب ابن ماسويه ، وابن سهل ، وابو بكر الرازى . وممن نبغوا فى العلوم الرياضية والفلكية أبناء موسى بن شاكر ، والخوارزمى ، وابو معشر الفلكى وابن يونس المصرى ، وابن الهيثم الرياضى .

أهم الفرنجة عن العرب

عرف العرب قيمة العلم وعكفوا على تحصيله وتحقيق مسائله ، وترجموا كتب الأقدمين من اليونان والروم والفرس والهنود ، وأقبلوا على التدوين والتصنيف ، ومهروا فى الاختراع وحذقوا الصناعات . قاموا بكل ذلك حين كان الاوربيون تائهين فى دياجير الجهالة ، مستسلمين للخرافات والعقائد الفاسدة ، بعيدين عن العلم الصحيح والأخذ بأسبابه .

ولما اتسعت فتوح المسلمين وعظم سلطانهم وامتد نفوذهم فى أوربا وغيرها ، شاهد الفرنجة من علومهم وفنونهم ما هالهم ، فتاقت نفوسهم إلى الأخذ عنهم والتلقى عليهم فأقبلوا على دراسة اللغة العربية حتى إذا أتقنوها صرفوا همهم إلى تحصيل معارف العرب فجلسوا إلى علمائهم وفلاسفتهم ، ونظروا فى كتبهم ، ونهلوا من حياضهم ، ونقلوا الى بلادهم ما شاء الله أن ينقلوه من العلوم والفنون .

وما كاد الأوربيون يتذوقون حلاوة العلوم العربية حتى ثارت الحمية فيهم ، فنزح إلى الأندلس طوائف كثيرة من الإيطاليين والفرنسيين والجرمانيين والانجليز ، حتى إذا أساغوا ما شاءوه من علم وحكمة ، عادوا إلى بلادهم فأقاموا المدارس والمعاهد ودعوا إليها الناس فلبوا سراعًا . وما أجمل ما كتبته إحدي الصحف الانجليزية فى إثبات ما كان للعرب من المآثر فى العلوم والفنون ، وما كان لهم من الفضل على الفرنجة فى ذلك قالت « إنا لمدينون للعرب كثيراً ، فانهم الحلقة التى وصلت مدنية أوربا قديمًا بمدنيتها حديثًا ، وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف واستيقظوا من النوم العميق الذي ناموه فى العصور المظلمة . ونحن لهم مدينون أيضًا بترقية العلوم الطبعية والفنون الصادقة النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت أوربا وقدمتها فى الحضارة والمدنية » .

التربيـة

أغراضها

لم يكن غرض المسلمين من التربية دنيوياً محضاً كما كان عند اليونان والروم مثلاً، ولم يكن دينياً محضاً كما كان عند الاسرائيليين فى الصدر الأول، و إنما كان غرضهم دينياً ودنيوياً معاً. فقد كانوا يرمون إلى إعداد المرء لعملى الدنيا والآخرة. وفى القرآن والحديث وآثار السلف ما نبههم على ذلك. قال تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا). وقال صلى الله عليه وسلم « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ». وقال أيضاً « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه ». وقد امتدح أحد الشعراء المأمون بقصيدة قال فيها.

تشاغل الناس بالدنيا وزخرفهـا وأنت بالدين عن دنياك مشغول

فقال المأمون ويحك! ما زدتنى على أن جعلتنى عجوزاً فى محرابها ومعها سبحتها. هلا قلت كما قال جرير فى عمر بن عبد العزيز

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبـه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

و إنى لأميل إلى القول بأن غرض التربية عند المسلمين كان تهذيب النفوس وتحصيل الفضيلة، يدل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل لهداية الناس وتأديبهم بأدب القرآن فكان أول معلم فى الإسلام. وقد أثر عنه أنه قال « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

مناهجها وأساليبها

لما كان القرآن عند المسلمين منبع الدين وأساس العلوم الإسلامية، جعلوه أصلاً فى التعليم وأساساً فى التربية. والعرب و إن اتفقوا على ذلك، مختلفون فى مناهج التعليم ومواده على حسب اختلاف أمصارهم.

فأهل المغرب يقتصرون فى تعليم أولادهم على مدارسة القرآن وأخذهم برسمه وقراءاته المختلفة، ولا يخلطون ذلك بسواه من حديث أو فقه أو شعر أو أخبار إلى أن يحذقه الوليد ويجاوز حد البلوغ إلى الشبيبة . وكذلك يسيرون على هذا المنهاج مع الكبير الذى يراجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره . ومن هنا كان أهل المغرب أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم .

وأهل الأندلس يُعلِّمون القرآن ولكنهم لا يقتصرون عليه فى تعليم الولدان ، بل يخلطون به رواية الشعر والترسلَ وقوانين العربية وروايةَ الأخبار والكتابة وتجويد الخط وكذلك الحساب وتقويم البلدان . ولم تكن عنايتهم بالقرآن بأكثر من عنايتهم بغيره ، على أنه من المقطوع به أن عنايتهم بالخط كانت تفوق عنايتهم بكل شىء سواه . وكان الغلام عندهم لا يجاوز البلوغ إلى الشبيبة إلاّ وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما ، وبَرَّزَ فى الخط والكتابة وتعلق بأذيال العلم على الجملة .

أما أهل المشرق (العراق وما جاورها من البلاد الإسلامية) فكانوا يخلطون فى التعليم كأهل الأندلس ، إلاّ أنهم يختلفون عنهم من جهتين ، أولاهما أن عنايتهم بمدارسة القرآن كانت تفوق عنايتهم بالعلوم الأخرى . وثانيتهما أن الخط لم يكن من الفنون التى يخلط تعليمها بتعليم القرآن ، وإنما كانت له معاهد ومعلمون على انفراد كسائر الصناعات ، ولذلك لم تبلغ خطوط الولدان فى المكاتب حدَّ الإجادة . ومن أراد منهم أن يَجُودَ خطُّه ، ابتغى ذلك عند أهل صنعته .

هذه هى المذاهب التى جرت عليها الأمصار الإسلامية فى مواد الدراسة ومناهجها ، وهى مذاهب مختلفة متباينة ، إلاَّ أن أساس جميعها تعليم القرآن والبداءة به .

ولكثير من أئمة المربين فى الإسلام مذاهب أخرى فى مناهج الدراسة لايتقيدون فيها بجعل القرآن أساسًا ، ومن هؤلاء القاضى أبو بكر العربى ، فإنه يذهب فى كتاب رحلته إلى البداءة بتعليم الشعر وعلوم اللغة والانتقال من ذلك إلى تعليم الحساب ، حتى إذا أتقن الوليد ذلك ، انتقل إلى دراسة القرآن فانه يتيسر عليه فهمه بهذه المقدمة .

ومما يؤثر عنه فى ذلك قوله « ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ مالا يفهم ، وينصب فى أمر غيره أولى بالتقديم منه » ولقد وافقه على هذا المذهب العلامة ابن خلدون ، فإنه بعد أن نقل رأيه فى مقدمته علق عليه بقوله « وهو لعمرى مذهب حسن إلاَّ أن العادات لا تساعد عليه » .

هذه هى مواد الدراسة فى مكاتب الصبيان والمدارس الابتدائية ، وهى كما ترى كثيرة متنوعة فى بعض الأمصار ، وقد كان الولدان يَصِلون فى بعض هذه المواد إلى درجة راقية ، وكانوا يتعلمونها تعليماً صحيحًا متقنًا . كتب مؤرخ من مؤرخى الفرنجة يقول : « كان العرب فى مدارسهم الابتدائية يعلمون أطفالهم تقويم البلدان ، ويستخدمون فى ذلك الكرات الصناعية ، فى حين كانت الكنائس فى رومة وفى القسطنطينية لا تزال تحمل الناس على الاعتقاد بثبات الأرض وانبساطها »

أما مناهج الدراسة فى المدارس العالية ، فقد كانت غاية فى الرقى والتقدم ؛ ذلك أنها كانت تشمل غير العلوم الشرعية واللسانية الحسابَ والهندسة وحساب المثلثات والطبعيات والفلكَ وعلوم الحياة والطب والتشريح والمنطق والإلهيات . وكان كل علم من هذه العلوم يدرس دراسة عملية متقنة تبث فى متعلميه روح البحث والتنقيب ، وتقودهم إلى الجليل من أعمال الكشف والاختراع .

اضطهاد الخلفاء وخطة المدارس العالية

كانت الفلسفة فى العصر الإسلامى على شيوعها وكثرة المتعلقين بها منظوراً إليها بعين السخط من العامة وكثير من أهل الخاصة ؛ وكان أصحابها متهمين فى دينهم وعقائدهم يَنْظر إليهم الناس شزراً ويرمونهم بالكفر والإلحاد ، ولكن هذا الروح لم يكن ليظهر كل الظهور فى أيام الخلفاء الموالين للفلاسفة المغرمين بالعلوم الدخيلة . ولما جاء الخليفة المتوكل وكان سنيًّا يكره الفلسفة وأصحابها ، لَقِىَ الفلاسفة فى زمنه وبعد زمنه من أنواع العسف والجور ما لا قبل لهم بدفعه ، فاضطروا إلى التستر ، وأصبح الكثيرون منهم ينكرون الفلسفة ظاهراً وهم كَلِفون بها باطنًا . ومن أجل ذلك ألَّفوا

الجماعات السرية لدراستها والاشتغال بها. ومن أشهر هذه الجماعات «جماعة إخوان الصفاء».

تألفت هـذه الجماعة فى بغداد فى أواسط القرن الرابع للهجرة، وكان أعضاؤها يجتمعون سرًّا، ويتباحثون فى الفلسفة على اختلاف وجوهها ومناحيها حتى صار لهم فيها مذهب خاص كونوه بعد أن درسوا آراء اليونان والفرس واليهود وعدّلوها تعديلاً يلائم روح الدين الإسلامى. وأساس مذهبهم أن الدين الإسلامى أصبح مملوءا بالخرافات ملوثًا بالجهالات، وأنه لا سبيل إلى تطهيره وإصلاحه إلاّ بمراجعة العقل فيه، ومَزْج مسائله بمسائل الفلسفة اليونانية.

ابتدءوا بهـذه الفكرة وأقبلوا على البحث والتنقيب، ودونوا آراءهم ومباحثهم فى إحدى وخمسين رسالة سموها رسائل إخوان الصفاء، وضمنوها العلوم الطبعية والرياضية والفلسفة والمنطق والإلهيات؛ فأقبل عليها مريدو الفلسفة وأخذوا يتناقلونها ويتدارسونها سرًّا. وكان الطلاب عادة لا ينظرون فيها إلاّ بعـد أن تسبق لهم دراسة ابتدائية تعدهم لتلقى علومها وفنونها، فكانت لذلك منهاجا للدراسة العالية فى البلاد الإسلامية.

ابتدأت هـذه الرسائل بالبحث فى الموضُوعات الحسية، وتدرجت منها إلى الموضوعات العقلية، ثم انتهت بالنظر فى الأمور الإلهية، وهنا عُرِضت العقيدة الإسلامية وفُصِّلت مسائلها تفصيلاً وافيًا. ولقد أنصف كتاب الفرنجة هذه الجماعة، فعدوا عملها أحكم عمل أريد به التوفيق بين الفلسفـة والدين، وأتم منهاج دراسِيّ وضعه العقل الإنسانى فى العصور المتوسطة.

معاهد التعليم فى الاسلام

(١) الجوامع والمساجد: كان المسلمون فى أول عهدهم بالتعليم يتخذون مدارسهم فى الجوامع والمساجد كما كانت النصارى يتخذونها فى الأديار والكنائس، وكانوا يسمون التلاميذ المجتمعين حول أستاذهم لتلقى العلم «حلقة» وينسبون كل حلقة فى الغالب إلى أستاذها، فيقولون مثلاً حلقة أبى إسحق الشيرازى فى جامع المنصور. ومن الجوامع التى اشتهرت بالتدريس ما يأتى:

(ا) جامع عمرو بن العاص : وقد أُنشئ سنة ٢٣ هـ ، و بدأت الدراسة فيه سنة ٣٦ هـ بذكر قصص دينية خلقية قُصد بها تعليم المسلمين وتهذيبهم ، ثم اتسع نطاق التدريس به تدريجًا حتى إذا حضره الإمام الشافعى رضى الله عنهُ سنة ١٨٢ هـ وَجَد به ثمانى زوايا للتدريس ، فدرس هو فى واحدة منها .

(ب) جامع احمد بن طولون : وقد تم بناؤه سنة ٢٥٦ هـ وعين فيه جماعة من العلماء والفقهاء وأجريت عليهم الوظائف والأرزاق . وقد ارتقى التدريس فيه حتى أصبح فى عهد الملك حسام الدين لاشين سنة ٦٩٦ هـ موضعًا شهيراً بدراسة الفقه والحديث والقرآن والطب .

(حـ) الجامع الأزهر : وهو أشهر الجوامع فى التدريس على الإطلاق ، كمل بناؤه سنة ٣٦٠ من الهجرة و بدئت الدراسة فيه لخمسة وثلاثين طالبًا أجريت عليهم الأرزاق . وكانت الدراسة فيه أولاً مقصورة على القرآن والفقه ، ثم اتسع نطاقها بعد ذلك فتناولت الحديث وكثيراً من العلوم العقلية والنقلية . وقد بلغ عدد طلابه فى أواخر القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالبًا جاء كثير منهم من أقاصى البلاد الإسلامية ، أما الآن فيبلغ عدد طلابه زهاء عشرة آلاف ، منهم نحو ٧٠٠ طالب من الغرباء

(٢) المستشفيات والرباطات والمنازل : لم يكن التعليم عند المسلمين فى أول أمره خاصًا بالجوامع والمساجد ، فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس فى المستشفيات والرباطات وغيرها من الأماكن ، وكان الأغنياء يُحضِرون المعلمين إلى منازلهم لتعليم أولادهم كما كان يفعل الخلفاء والأمراء ، وكما يفعل أهل الوجاهة والثراء فى أيامنا هذه .

(٣) المدارس : لم تؤسس المدارس المستقلة الخاصة بالتدريس على النحو الذى نعهده اليوم إلا فى زمن متأخر جداً ، ويكاد مؤرخو المسلمين يجمعون على أن أول من بنى المدارس فى الإسلام نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلطان السلجوقى فى أواسط القرن الخامس للهجرة .

بنى هذا المصلح الكبير المدارس فى بغداد وأصبهان و نيسابور وغيرها ، وكانت

مدارسه جميعها تنسب إليه ، وأشهرها المدرسة النظامية فى بغداد ، بناها على شاطئ دِجلة سنة ٤٥٧ هـ ورتب فيهـا العلماء لدراسة العلوم الدينية واللسانية ، وبنى حولها أسواقًا ووقف عليها أوقافًا دارَّة . وقد كان لهذه المدرسة شأن كبير فى العالم الإسلامى وقد تخرج منها جماعة من فحول العلماء ، وكان من أساتذتها أبو اسحق الشيرازى ، وأبو حامد الغزالى ، وكمال الدين الأنبارى .

ثم اقتدى السلاطين والأمراء بنظام الملك فى تأسيس المدارس المجانية فى أنحاء المملكة الإسلامية، فامتلأت بها دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها من بلاد الشام ، وقرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها من بلاد الأندلس ، ثم مصر والإسكندرية

(٤) دور الكتب : يرجع الفضل فى إنشاء دور الكتب فى البلاد الإسلامية إلى خلفاء النهضة العباسية . نعم قد قامت جملة من دور الكتب فى الإسلام قبل ذلك إلا أنها كانت فردية لا تعد من قبيل دور الكتب العامة التى ينشئها ولاة الأمور ومن فى حكمهم . وقد انتشرت هذه الدور بسرعة ونهض الناس إلى تأسيسها فى العراق والأندلس ومصر وغيرها من الأقطار .

ففى بغداد كان بيت الحكمة ، أنشأه هرون الرشيد وجمع إليه ما كان قد نقل إلى العربية من كتب الطب والعلم ، وما كان قد صُنِّف فى العلوم الإسلامية ، وكذلك ما وقع له من كتب الروم فى أنقرة وغيرها . ولما تولى المأمون شمله بعنايته فأضاف إلى ما فيه كثيراً من كتب العلم اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية بلَهَ العربية . وقد كان لهذا البيت قيِّمٌ يدير شئونه ويتولى أموره ويسمى صاحب بيت الحكمة ، وأشهر من تولى هذه القِوامةَ سهلُ بن هارون . وقد قامت فى بغداد بعد بيت الحكمة دور كتب أخرى كثيرة تعهدها الوزراء والأمراء وجمعوا لها الكتب آلافًا مؤلفة ، فكانت هذه الدور جميعها ركنًا من أركان النهضة العلمية فى الدولة العباسية .

وفى الاندلس تشبه بنو أمية بالمأمون فأخذوا فى إنشاء دور الكتب وملْئِها بنفيس الأسفار وعجيب المخطوطات . وأشبههم به فى ذلك الحكَمُ بن الناصر ، فقد كان محبًا

للعلم والعلماء . وقد أنشأ فى قرطبة دار كتب كبيرة وجمع اليها الكتب من جميع الجهات، وكان يرسل التجار لشرائها من أسواق العالم ، ويحضهم على كثرة البذل والعطاء فى هذا السبيل حتى بلغ عدد أسفارها على ما ذكره ابن خلدون ٤٠٠,٠٠٠ مجلد .

وفى مصر كانت خزائن القصور بالقاهرة وهى دار كتب فخمة موزعة فى قصور عدة ، ويقدر رجال التاريخ عدد أسفارها بألف ألف مجلد . ثم دار الحكمة : أنشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر العربى بالقاهرة ، ويقدر ما كان فيها من الكتب بنحو مائة الف مجلد .

وهناك غير ما ذكرنا دور كتب أخرى كثيرة أنشئت فى جهات متفرقة من العالم الإسلامى ، وقد كان الغرض من إنشاء أكثرها تسهيل دراسة العلم وتيسير أمر الترجمة والتأليف .

النساء فى العصر الاسلامى

كانت المرأة العربية فى العصر الإسلامى مشهورة بالعفة والأنفة ، معروفة بسداد الرأى ورجحان العقل ، وكان علمها على الجملة غزيراً وفضلها عظيماً وتأثيرها فى الدولة كبيراً . كانت تقرأ القرآن وتحفظ الحديث وتنشد الأشعار وتروى الأخبار وتعرف مطالع النجوم وتشارك الرجال فى شئون السياسة وتسير معهم الى ساحات القتال .

وقد اشتهر كثير من نساء المسلمين وجرت بهن الأمثال . منهن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها . كانت ذات عقل راجح وعلم واسع وفيها دهاء وقوة ؛ رأست حزباً كبيراً من الصحابة وأثارت حرباً عوانًا ، وكانت حجة فى رواية الحديث ومسائل الدين . ومنهن عائشة بنت طلحة بن عبد الله الصحابى ، فقد كانت ذات عقل ورأى وعلم وأدب ، وكانت على فرط جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لجليل قدرها وعظيم شرفها ، وكثيراً ما كانت تجلس فى قصرها بالمدينة فيفد إليها الشعراء وينشدون أشعارهم بين يديها فتجيزهم الجوائز الكبيرة . ومنهن تُماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد الملقبة بالخنساء . كانت من شواعر العرب المعترف لهن بالتقدم ، وكانت ذات رأى وعفة ودين ، ومما

يدل على نبلها وفضلها ما كان من أمرها فى وقعة القادسية ؛ وذلك أنه كان لها بنون أربعة نفروا فى جيوش المسلمين لفتح فارس ، فسارت معهم وخَطبَتْهم أول الليل فقالت : « يا بنى إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلاَّ هو إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ؛ ما هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم ، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فإذا رأيتم الحرب قدشمرت عن ساقها وجلت ناراً على أرواقها فتيمموا وطيسهـا وجالدوا رئيسها تظفروا بالمغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة» . فلما أسفر الصبح بادروا مراكزهم ، وتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم حتى قُتِلوا عن آخرهم ، فبلغها الخبر فقالت « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة »

وقد ظهرت قوة النساء بأجلى مظاهرها فى أيام الدولة العباسية ، فقد أحرزن نفوذاً واسعاً وأثرن فى الدولة تأثيراً كبيراً . واعتبر ذلك فى أمهات الخلفاء العباسيين ؛ فقد كانت الخيزران أم الهادى والرشيد ذات جبروت وقوة يهابها أولادها و يأتمرون بأمرها ، ومن عصاها منهم أوحاول نزع السلطان من يدها حقدت عليه ودبرت له المكايد وربما قتلته . كانت أيام زوجها صاحبة الأمر والنهى ، ولما تولى ابنها الهادى أرادت أن تسلك معه مسلكها مع أبيه ، فاستبدت بالأمر دونه ولم يمض على توليته أربعة أشهر حتى كان الأمر كله بيدها ، وأخذت المواكب تروح وتغدو إلى بابها ، فساءه ذلك وجرد سيف عزمه ليحول بينها و بين التدخل فى شئون الدولة ، ولكنها حين أحست أمره ، ورأت بوادر غضبه ، دست إليه بعض جواريها فقتلته . ولما كانت أيام الرشيد استبدت بالأمور واحتشدت الأموالُ فى خزانتها حتى بلغ دخلها فى العام نصف دخل المملكة العباسية فى ذلك الوقت . وكانت أم المستعين بالله وكذلك أم المقتدر على هذا النحو ؛ كانت أيديهما مطلقة فى ملك ولديهما ، وكان لهما سلطان واسع ونفوذ عظيم .

لم يكن نفوذ النساء وسلطانهن مقصوراً على أمهات الخلفاء ، فقد كانت أم موسى

الهاشمية القهرمانة فى أيام المقتدر ذات دهاء ونفوذ ، حتى لقد بلغ من أمرها أن تكفلت مرة بالخلافة لأحد العباسيين من أصهارها ، وأخذت تبذل الأموال للقواد وغيرهم ، ولولا أن وَشى الواشون بها إلى المقتدر لأفلحت فيما تكفلت به .

رجال التربية فى العصر الإسلامى

نبغ فى العصر الإسلامى عدد وفير من رجال التربية ، منهم القاضى أبو بكر العربى وأبو حامد الغزالى ، وابن خلدون وغيرهم من قادة المربين الذين لم تزل آراؤهم الى الوقت الحاضر موضع العناية وموطن الهداية ، ولنترجم لبعض منهم تراجم مجملة تشرح ما لهم من المذاهب السديدة والمبادىء الرشيدة فى التربية والتعليم .

(١) الغزالى

هو شيخ المريدين وإمام المربين حجة الإسلام أبو حامد الغزالى صاحب كتاب إحياء العلوم . ولد سنة ٤٥٠ هـ ونشأ بطُوس وتعلم بها مبادىء العلوم، ثم قَدِم نَيْسَابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبى المعالى الجُوَينى شيخ الوقت وإمام الشافعية فى ذلك العصر . وجدّ فى الاشتغال حتى تخرج فى مدة قصيرة وصار من أكابر الأشاعرة وفقهاء الشافعية ، وأصبح أستاذه يفاخر به العلماء ويتباهى بتعليمه

ولما مات الجُوينى خرج من نيسابور إلى العسكر وهى محلة بالقرب من نيسابور ، فلقى بها الوزير نظام الملك وكان بحضرته جماعة من أكابر العلماء فاشتركوا فى المناقشات وجرى بينهم الجدال والمناظرة فى مجالس عدة ، فظهر عليهم جميعًا وأقر له فحول العراق بالفضل ، فعلت مكانته عند الوزير وفوض اليه التدريس بمدرسته النظامية ببغداد ، فجاءها سنة ٤٨٤ هـ وتولى التدريس بها . وقد كانت هذه المدرسة تشبه من بعض الوجوه المدارس العالية فى أيامنا الحاضرة ، فلم ينتظم فى سلك طلابها إلا من قاربوا الانتهاء من علومهم .

استمر الغزالى على التدريس بهذه المدرسة أربع سنوات ثم طرأت عليه حال زهادة فى الدنيا فترك جميع ما كان عليه وآثر العزلة عن الناس ، وخرج الى البلد الحرام سنة ٤٨٨ هـ قاصداً الحج ، ثم ذهب إلى دمشق وأقام بها مدة معتكفًا متجرداً عن الدنيا ومشاغلها ، ثم دخل مصر وأقام بالاسكندرية مدة ، وعاد بعد ذلك إلى وطنه بِطُوس واشتغل بتصنيف الكتب ، ثم لزم التدريس بنيسابور . وأخيراً رجع إلى وطنه حيث قضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البر ، ومات بالطابران قصبة طوس سنة ٥٠٥ هـ

خلَّف الغزالى ما يزيد على سبعين مؤلفًا أكثرها فى الفقه والجدل والمناظرة والرد على الفلاسفة والدفاع عن الدين، ومن أشهر كتبه كتاب إحياء علوم الدين فى التصوف والأخلاق ، وقد بسط فيه آراءه فى التربية والتعليم بأسلوب واضح لا لبس فيه .

آراء الغزالى فى التربية والتعليم

رأيه فى منزلة صناعة التعليم

يرى الإمام الغزالى أن صناعة التعليم أشرف الصناعات التى يستطيع الإنسان أن يحترف بها ، ويستدل على ذلك بالنقل والعقل .

أما أدلته النقلية فكثيرة ، منها أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفى الثانى جماعة يعلمون الناس ، فقال : أما هؤلاء فيسألون الله فإن شاء أعطاهم و إن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلّمون الناس ، وإنما بعثت معلمًا ، ثم عدل إليهم وجلس معهم . ومنها أيضًا ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : على خلفائى رحمة الله ، فقيل له ومن خلفاؤك ، فقال الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله .

وأما شواهده العقلية فمنها أن شرف الصناعة يعرف بشرف محلها كفضل الصياغة على الدباغة إذ محل الأولى الذهب ومحل الثانية جلد الميتة ، ولا شك أن لصناعة التعليم

من شرف المحل أوفى حظ وأتم نصيب ، فإن المعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم، ولا يخفى أن أشرف مخلوق على الأرض هو الإنسان وأن أشرف شىء فى الإنسان قلبه والمعلم مشتغل بتكميله وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل .

رأيه فى غرض التربية

يرى الغزالى أن الفضيلة والتقرب الى الله تعالى أهم أغراض التربية، يدلك على ذلك قوله « ومهما كان الأب يصون ولده عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق » . وقال أيضاً « الخُلُق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين » . وقال فى موضع آخر « على المعلم أن ينبه المتعلم على أن الغرض بطلب العلوم التقرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة »[1] .

رأيه فى فطرة الطفل

يلوح لنا أن الغزالى يذهب مذهب المنكرين للغرائز والوراثة ، ويرى أن الطفل يخرج إلى هذه الحياة صحيفة بيضاء خالية من كل نقش وتصوير ؛ يدل على ذلك قوله « والصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه » ، وقد كان هذا مذهب كثير من المربين فى الأزمنة الغابرة ، ولكن التربية الحديثة قد نقضته وأظهرت بطلانه ، وأثبتت بالبراهين الدامغة أن الطفل يولد مزوداً بالغرائز مملوءاً بكثير من آثار تجارب أمه وأبيه[2] .

---

(١) راجع فى الجزء الثالث من الاحياء كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق . وراجع فى الجزء الاول منه الباب الخامس من كتاب العلم

(٢) راجع فى الجزء الثالث من الاحياء كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق

آراؤه فى تربية الطفل وتأديبه

عقد الغزالى فى كتاب الإحياء فصلاً لرياضة الصبيان فى أول نشوئهم ، وبسط فيه آراءه ومبادئه بسطاً وافياً ، وتعرض لأقسام التربية الجسمية والعقلية والخلقية ، وخلاصة آرائه تنحصر فيما يأتى : —

(١) أن يعتنى بتربية الطفل من مبدأ ولادته وأن يراقب من أول أمره ، فلا يستعمل فى حضانته و إرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة . ومما يؤثر عنه فى وجوب المبادرة بتأديب الطفل قوله « إن الصبى إذا أهمل فى بدء نشوئه خرج غالباً ردىء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكياد ومَجَانة ، و إنما يحفظ عن ذلك بحسن التأديب » .

(٢) أن يعود الاخشيشان فى مطعمه وملبسه ومفرشه ، ومأخذ ذلك قوله «ينبغى أن يؤدب الطفل فى الطعام . . . وأن يعود الخبز القفَار فى بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأُدم حتما . . . ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن . . . وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم ، ويُقَرَّرَ عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين » ، ثم قوله بعد ذلك « ويمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يَسْخَف بدنه . »

(٣) أن يعلم فى المكتب القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار لينغرس فى قلبه حب الصالحين ، وأن يُحفَظَ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويجنب مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظَّرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلب الطفل بذور الفساد .

(٤) أن يأخذ حظّاً وافراً من الرياضة البدنية فإن ذلك يقوى جسمه ويملؤه نشاطاً ، وفى ذلك يقول « ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل » . وفى موضع آخر يقول « وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب التعلُّم بحيث لا يتعب فى

اللعب ، فإن منع الصبى من اللعب و إرهاقه إلى التعلم دائمًا يميت قلبه و يبطل ذكاءه و ينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه » .

(٥) أن يعود الأخلاق الجميلة والعادات الحميدة ويجنب الرذائل والمساوى ، فيعود الشجاعة والصبر والتواضع ، و إكرام العشير وتوقير الكبير وقلة الكلام وحسن الاستماع وترك اليمين وطاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه ، وأن يمنع من لغو الكلام وفحشه والافتخار على أقرانه بشىء مما يملكه أبواه .

(٦) أن يحفظ من قرناء السوء ، فإن أخلاق هؤلاء تنتقل إلى معاشريهم كما تنتقل الأمراض من المِراض إلى الصِّحاح .

(٧) أن يكافأ على كل خلق جميل أو فعل حميد يظهر منه ، ليكون ذلك تشجيعًا له و باعثًا على الاستكثار من الخير .

(٨) الاقتصاد فى لومه وتعنيفه عند وقوع الذنوب ، وفى ذلك يقول « ولا تكثر القول عليهِ بالعتاب فى كل حين فان ذلك يهوّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح و يخفف وقع الكلام فى قلبه . وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلاَّ أحيانًا وعلى الأم أن تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح »

(٩) إذا بلغ الوليد سن التمييز وجب أن يعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع وأن يؤخذ بكثير من أمور الدين فلا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة

(١٠) إذا وصل الغلام سن البلوغ صح للمربى أن يقفه على أسرار الشريعة والآداب التى أخذ بها فيما قبل ، فإنه فى هذه السن تتولد فيه القوى العقلية التى تساعده على إدراك كل ذلك[1] .

آراؤه فى تهذيب الخلق والطريق اليه

يرى الغزالى أن أقوم الطرق لاكتساب الفضائل إنما هى المجاهدة والرياضة ، و يعنى بهما حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب « فمن أراد مثلاً أن

(١) راجع فى الجزء الثالث من الاحياء كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق

يُحَصِّل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف فعل الجواد وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب بهِ نفسه ويواظب عليهِ تكلفًا مجاهداً نفسه فيهِ حتى يصير ذلك طبعًا له ويتيسر عليه فيصير به جواداً . وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليهِ الكبر ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقًا له وطبعًا فيتيسر عليهِ . وجميع الأخلاق المحمودة تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر عنه لذيذاً » .

ومن الطرق التى أرشد إليها فى النزوع عن الأخلاق السيئة سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل إليهِ . قال « كما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلاّ بضدها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المُشْتَهَى تكلفًا » .

كذلك من نصائحه الغالية ألا يؤخذ الغلمان جميعًا بطريق واحدة ، وألاّ يعاملوا معاملة واحدة فى العلاج والتهذيب ، وإنما يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم . قال « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم ، وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وسنه ومزاجهِ وما تحتمله نفسهُ من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته » .

ومن وصاياه النافعة فى تهذيب الأخلاق والنزوع عن العادات السيئة ، أن يسلك المربى سبيل التدرج مع الغلمان الذين لا يقتدرون على ترك الخلق السيئ دفعة واحدة قال « ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ، أن ينقله المربى من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه »[1] .

---

(١) راجع فى الجزء الثالث من الاحياء كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق

الغزالى والتعليم العالى

كان الغزالى يزاول التعليم فى المدرسة النظامية ببغداد وهى أشبه شىء بمدارسنا العالية ، وكان فحول العلماء ونوابغ الطلاب يحضرون دروسه ، فلا غرو أن جاء أكثر كلامه عن التعليم خاصاً بالتعليم العالى . وقد وضع لمن يشتغل به من المتعلمين والمعلمين آدابًا خاصة ضمنها آراءه فى مواد التعليم وطرقه . ونحن نسوق إليك هذه الآداب بنوع من الاختصار ملتزمين عبارته فى أكثر المواطن .

آداب المتعلم

(١) أن يقدم طهارة النفس من رَذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف . فإن الطالب السيىء الأخلاق أبعد الناس عن العلم الحقيقى النافع .

(٢) أن يقلل علائقه بالدنيا والاشتغال بها ويبعد عن الأهل والوطن فى طلب العلم ، فان العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

(٣) ألا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقى إليه بزمام أمره فى كل تفصيل ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وإن نصحه المعلم بطريق فى التعليم فليتبعه وليدع رأيه ، فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه . وبالجملة كل متعلم استبق لنفسه رأيًا واختياراً دون اختيار المعلم جدير أن يحكم عليه بالإخفاق والخسران .

هذا رأيه ، وفى اعتقادنا أنه مغال فيه إلى درجة تضعف من إرادة المتعلم ، وتقلل من اعتماده على نفسه ويجدر بطالب العلوم العالية ألا ينقاد انقياد الأعمى ، وألا يكون إمَّعة يتابع الناس ولا رأى له .

(٤) أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الإصغاء الى اختلاف الناس فى العلوم ، فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغى أن يتقن أولاً الطريقة الجيدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم

بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه . وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فان إضلاله أكثر من إرشاده ، فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم .

(٥) ألا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيهِ ، والا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض

(٦) ألا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم ، فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم فالحزم أن يأخذ من كلّ شىء أحسنه

(٧) ألا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والمدقق من راعى ذلك الترتيب والتدريج

(٨) أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، وألا يقصد بالتعلم الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران .

(٩) أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كى يؤثر القريب على البعيد والمهم على غيره ، ومعنى المهم ما يهمك ، ولا يهمك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذّ الدنيا ونعيم الآخرة فالأهم نعيم الآخرة الذى يبقى أبد الآباد . أما المقصد الذى تُنْسب اليه العلوم فهو السعادة بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم (١)

آداب المعلم المرشد

(١) الشفقة على المتعلمين وأن يُجريهم مجرى بنيه

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامُه ، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد بهِ جزاء ولا شكراً ، بل يعلم الطلاب لوجهِ الله تعالى وطلباً للتقرب إليهِ ، ولا يرى لنفسهِ منة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها .

---

(١) راجع فى الجزء الاول من الاحياء الباب الخامس من كتاب العلم

(٣) ألا يدع من نصح المتعلم شيئًا ، وذلك بأن يمنعهُ من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خَفِيّ قبل الفراغ من الجلىّ ، ثم ينبههُ على أن الغرض من طلب العلوم التقرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة .

(٤) أن يزجر المتعلم عن سوء الخلق بطريق التعريض لا التصريح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار ، قال صلى الله عليهِ وسلم وهو مرشد كل معلم : لو منع الناس عن فت البعر لفتُّوه .

(٥) ألا يُقَبِّح المتكفل ببعض العلوم فى نفس المتعلم شيئًا من العلوم التى وراءه ، كمعلم اللغة اذ عادتهُ تقبيح علم الفقهِ ومعلم الفقهِ عادتهُ تقبيح علم الحديث والتفسير ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقهِ ، فهذا خلق مذموم للمعلمين ينبغى أن يُجتنب ، بل الواجب على المتكفل بعلم واحد أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فعليهِ أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة .

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمهِ اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم فإنه قال : نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم .

(٧) ألا يُلْقِىَ على المتعلم القاصر إلاّ الجليُّ اللائق بهِ ، ولا يليق أن يذكر له معلمهُ أن وراء هذا تدقيقًا وهو يدخره عنهُ ، فان ذلك يفتر رغبتهُ فى الجلى ويشوش عليهِ قلبهُ ويوهم إليهِ البخل بهِ عنهُ ، إذ يظن كل أحد أنهُ أهل لكل علم دقيق ، فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانهُ فى كمال عقله ، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله

(٨) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار اكثر ، وكل من تناول شيئًا وقال للناس لا تتناولوه فانهُ سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نُهُوا عنهُ . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود فكيف يستوي الظل والعود أعوج[1] ؟

---

(١) راجع فى الجزء الاول من كتاب الاحياء الباب الخامس من كتاب العلم

(٢) ابن خلدون

هو إمام المؤرخين وعمدة المربين وأحد الكتاب المجيدين عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون . ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ ، ثم حفظ القرآن وقرأه بالسبع ودرس الفقه والحديث ، وتعلم صناعة العربية على والده وعلى أستاذى تونس ، وأخذ العلوم العقلية والفلسفية عن بعض حكماء المغرب ، ونبغ فى كل ما تلقاه ودرسه حتى شهد له شيوخه بالنبوغ والتبريز .

ولم يزل منذ نشأ وناهز مكبًّا على تحصيل العلم ، حريصًا على اقتناء الفضائل ، منتقلا بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن دهم أفريقية طاعون جارف مات فيه والداه وكثير من ذوى قرابته وشيوخه ، فاحترف بصناعة الكتابة ، فكتب لبعض الملوك فى تونس وفى فاس ، ورحل بعد ذلك إلى ملوك بنى الأحمر بالأندلس ، فحظى عندهم وأقام معهم ما شاء فى إجلال وإكرام ، ثم بقى يتردد بين المغرب الأوسط والأقصى وأفريقية والأندلس والملوك يقبلون عليه ويتنافسون فى استمالته إليهم ، فكتب ووزر لكثير منهم ، وتقلب فى أعلى مراتب الحكم والسلطان حتى حسده أصدقاؤه وأحباؤه وكثرت السعايات فيه ، ففضل أن يعتزل السياسة وينقطع إلى العلم ، فنزل على بعض قبائل العرب على حدود الصحراء أربع سنين ، وهناك شرع فى تأليف تاريخه فأكمل المقدمة وكتب بعض التاريخ .

دخل ابن خلدون مصر سنة ٧٨٤ هـ وجلس للتدريس فى الأزهر ، واتصل بسلطانها برقوق فأكرمه وولاه قضاء المالكية سنة ٧٨٦ هـ . ولما طاب له المقام فى القاهرة حركه الشوق إلى أهله وولده فأرسل يستقدمهم من المغرب ليقيموا معهُ فغرقت بهم السفينة ، فتولاه الجزع ونال منهُ الحزنُ حتى أعرض عن الدنيا وزهد فيها ، ولذلك استقال من منصبه وانقطع للتدريس والتأليف ، فأتم تاريخه . ثم مات سنة ٨٠٨ من الهجرة .

مؤلفه فى التاريخ

لم يشتهر ابن خلدون بشىء شهرته بتاريخه ، وهو ثلاثة كتب فى سبع مجلدات

(١) الكتاب الأول فى العمران وما يعرض فيه من أحوال الملك والكسب والمعاش والصناعات والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب . وهذا الكتاب هو المشهور بالمقدمة وبها وحدها نال شهرته الفائقة .

(٢) الكتاب الثانى فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ الخليقة إلى عهده ، مع الإلماع إلى من عاصرهم من الأمم كالنبط والسريان والفرس والقبط واليونان وغيرهم .

(٣) الكتاب الثالث فى أخبار البربر وما كان لهم بديار المغرب من الدول .

ويمتاز تاريخ ابن خلدون هذا بما تضمن من المقدمات الفلسفية التى تحلت بها صدور فصوله ، وبتلك اللغة العالية التى كُتِب بها ، فقد كادت لغته فى المقدمة تصل إلى درجة من البلاغة تضارع بلاغة الكتاب النابغين فى القرن الثالث .

آراؤه ومبادئه فى التعليم وطرقه

عقد ابن خلدون فى مقدمته فصلاً طويلاً فى التعليم وطرقه وسائر وجوهه ، وضمنه آراءه ومذاهبه فى تلقين العلوم وطريق إفادتها ، وها نحن أولاء نسوق إليك آراءه ونعرض عليك نصائحه مؤثرين عبارته فى كثير من المواطن ، ومجملين جميع ما ذكره فى الأمور الآتية : —

(١) الإجمال فى البداءة ثم التفصيل بعد ذلك ، فتلقى على التلميذ أولاً مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ، وتشرح له على سبيل الإجمال حتى ينتهى إلى آخر الفن ، ثم يَرْجِعُ به الأستاذ إلى الفن ثانية ويرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويخرج معه من الإجمال إلى التفصيل ، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهى إلى آخر الفن ، فتجود ملكته . ثم يرْجِعُ به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مُغلَقاً إلا أوضحه وفتح له مقفله ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . فالتعليم الجيد المفيد على رأيه إنما يحصل بالتكرار ثلاث مرات على النحو الذى سبق

(٢) الاعتماد فى أول الأمر على الأمثلة الحسية ، فإن المبتدىء فى أول أمره ضعيف الفهم قليل الإدراك ولا يعينه على فهم ما يلقى عليه مثل الأمثلة الحسية .

(٣) ألا يؤتى بالغايات فى البدايات ، ومعنى ذلك ألا يؤتى بالتعاريف والقوانين الكلية فى أول الأمر ، بل يجب الابتداء بالأمثلة الكافية ثم الانتقال منها إلى التعاريف والقواعد . ومن قبيل إلقاء الغايات فى البدايات ما تسمعه من الأساتذة فى بعض المكاتب المصرية . تسمعهم يعرّفون الأرض لتلاميذ السنة الأولى بأنها « كوكب دوار يدور حول نفسه وحول الشمس » . ومن إلقاء الغايات فى البدايات أن يبتدىء المعلم مع تلاميذه دروس النحو بإعراب البسملة وذكر ما فيها من وجوه الإعراب المختلفة . إن إلقاء الغايات فى البدايات سبب من الاسباب التى تُبَغِّض العلم الى المتعلمين ، وتدعوهم إلى الانحراف عنهُ ، وكثيراً ما يكون ذلك داعية إلى قتل ذكائهم و إضعاف نشاطهم الفكرى .

(٤) ألا يُطَوَّل على المتعلم فى الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها ، لأن ذلك ذريعة النسيان وانقطاع مسائل العلم بعضها عن بعض . وأرى أن هذا يخالف الطرق الرشيدة فى التربية الحديثة ، لأن النفس تسأم العمل الواحد المستمر وتميل الى التنويع والتغيير ، ولأن فترات الراحة التى يأتى بها تفريق المجالس تفيد فى تسجيل الدروس القديمة فى المخ كما هو مقرر فى علم النفس

(٥) ألا يُخْلَطَ على المتعلم علمان معًا فانه حينئذٍ قلَّ أن يظفَر بواحد منهما ، لما فى ذلك من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تَفَهُّم الآخر ، فيستغلقان معًا و يعود منهما بالخيبة . أما إذا تفرغ الفكر لدرس علم واحد فربما كان ذلك أجدر بتحصيله . وأرى أن هذا يخالف طرق التربية السديدة ، فإن التنويع والتغيير فى الدروس يجددان من نشاط المتعلمين و يزيدان فى إقبالهم على التعليم ، أما الاستمرار فى علم واحد فمدعاة إلى السأم والتعب الفكرى

(٦) البداءة فى التعليم بكتاب الله يقرؤه التلميذ و يحفظه ثم ينتقل منه إلى غيره من العلوم والفنون ، إلا أن بعضاً من المربين يرى البداءة بتعليم علوم العربية والانتقال منها إلى الحساب ومنهُ إلى القرآن الكريم ، وقد ارتضى ابن خلدون هذا الرأى كما مر عليك تفصيله

(٧) ألاَّ يُوسَّعَ الكلامُ فى العلوم الآلية بخلاف العلوم المقصودة بالذات ، وذلك أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين ، علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه ، وعلوم آلية هى وسائل لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرها ، فأما العلوم التى هى مقاصد فلا حرج فى توسيع الكلام فيها وتفريع المسائل ، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنًا فى ملكته وإيضاحًا لمعانيها المقصودة ، وأما العلوم التى هى آلة لغيرها ، فينبغى أن يقتصر فيها على القدر الذى يساعد على فهم الأولى لا غير ، إذ أن توسيع الكلام فيها قد يعوق عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم ، والعمر يقصر عن تحصيل الوسائل والغايات على هذه الصورة المطولة

(٨) ألا يُطالِب المعلمون تلاميذَهم بمعرفة ما وقع فى العلوم من مختلف الاصطلاحات وتعدد المذاهب ، وألا يكلفوهم استقصاء المؤلفات واستيعاب ما كتب فى كل علم ، فإن ذلك يعوقهم عن التحصيل . قال ابن خلدون فى ذلك « اعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات فى التعليم ثم مطالبة المتعلم باستحضار ذلك كله ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ، ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل » .[1]

(٩) أن يتجنب المعلمون تصنيف المتون المختصرة وتكليف تلاميذهم تتبع ألفاظ الاختصار واستخراج المسائل من بينها ، فان ألفاظ المختصرات دائمًا عويصة مستغلقة ينقطع فى فهمها قسط صالح من الوقت . وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلاً بين فيه أن كثرة المختصرات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم وأقام على ذلك الحجج الناهضة وقال « قصد المتأخرون بهذه المختصرات تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبًا يقطعهم عن تحصيل الملكات »[2]

(١٠) الرحلة إلى الأقاليم النائية فى طلب العلم واستفادته . فإن ذلك يزيد فى

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون (فصل فى أن كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل)

(٢) راجع المقدمة (فصل فى أن كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم)

تجارب المتعلم ويكسبه معارف وعلومًا قد لا تتاح له لو أقام جميع حياته فى بلده .

(١١) الرحمة بالأطفال وتقويمهم بالقرب والملاينة لا بالشدة والغلظة ، فإن إرهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم ومفسد لأخلاقه ، وفى ذلك يقول الإمام ابن خلدون «ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم ، سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث خوفًا من انبساط الأيدى بالقهر عليه » وقال بعد ذلك « ومن أحسن مذاهب التعليم ما نقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين ؛ فقال : يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وَرَوِّه الأشعار ، وعلمه السنة ، وبَصِّرْه بمواقع الكلام و بدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ و يألفه ، وقَوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .[1]

(١٢) أن يُعْتَمد فى تهذيب الأحداث على القدوة الحسنة ، فإن الأطفال يأخذون بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يأخذون بالنصح والإرشاد ، ومن أحسن ما رأيته فى هذا الموضوع ما كتب به عمرو بن عتبة إلى معلم ولده قال: «ليكن أولَ إصلاحك لولدى إصلاحُك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله ولا تُملِّهم فيه فيكرهوه ولا تتركهم فيه فيهجروه . رَوِّهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر منى لك . فقد اتكلت على كفاية منك » .

---

(١) راجع المقدمة (فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم)